أساليب مواجهة
التيارات المتشددة والفكر المتطرف

الأستاذ الدكتور / مجدى محمد عاشور

المستشار الأكاديمى لفضيلة مفتى الديار المصرية

مصر

مقدمـــــة:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعــد ،،،

فهناك حقيقة تؤكد دائمًا على أن تكوين الفرق والجماعات المتطرفة من حيل الشيطان وتلاعبه بالجهلة لتفريق الأمة وتمزيقها، ومن ثَمَّ ندرك ماهية ورسالة ما نشهده واقعًا فى العقود الأخيرة من تنامى التيارات المتشددة وشيوع الأفكار المتطرفة، والتى ظهرت على الساحة متفرقة متشرذمة، فكل جماعةٍ تتبنى فكرةً مختلفة، واسما مختلفا، وطريقة مختلفة، تتراشق فيما بينها بالشتائم والنقائص، وفى خصوص ذلك يقول ابن مسعود ﷺ : «الخلاف شر» [1]، أى الذى يؤدى إلى التفرق والتنازع.

ولا شك أن هذا الواقع الأليم جلب آثارًا سيئة على التدين الصحيح، الذى يدين به السواد الأعظم من أمة الإجابة، والذى رسَّخه الأئمة العاملون عبر القرون، ومن ثَمَّ صنعت صورة مشوهة

(١) سنن أبى داود، كتاب الصلاة، باب الصلاة بمنى، رقم ١٩٦٠.

للإسلام وأهله تلقفها أعداء الإسلام لتنفير العالمين من هذا الدين السمح الذى إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحدٌ.

ذلك لأن هذه التيارات سواء على مستوى الأشخاص أو الأفكار اجتمعت فيها سبعة أمور مهلكات للفرد والطوائف والمجتمعات:

(١) تخويف الناس وإرجافهم وإرهابهم.
(٢) الاستناد فى هذا التخويف بهتاناً إلى شرع ربهم.
(٣) شق صفوف الناس وتفريقهم.
(٤) إشعار الناس بأنهم كالأسرى والغرباء فى أوطانهم.
(٥) المسارعة إلى تفسيق الناس وتبديعهم وتكفيرهم.
(٦) ادعاء امتلاك الحقيقة فى الأمور الاجتهادية لشرذمة دون غيرهم.
(٧) صم الأذن عن قبول النصيحة من غير المنتسب إليهم.

ومن ذلك ندرك خطر هذه التيارات المتشددة وشناعة مرتكزات الفكر المتطرف الذى يضر الإسلام وأهله؛ فهو يُنفِّر الناس من التكاليف الشرعية، ويَشق على صاحبه الاستمرار عليه؛ فيفتر ويفقد مصداقيته أمام من عرفوه، كما أنه يضر بالتوازن المطلوب فى شخصية المسلم، ويضاف إلى ذلك تعصب المتطرف إلى رأيه وجموده عليه، وعدم اعترافه بالآخر كما قدمت.

ولا شك أن هذا الوباء الخطير لا بد أن تتضافر فى معالجته كل مؤسسات التربية والتثقيف من التعليم، والإعلام، والثقافة، والبيت والأسرة، فضلا عن المؤسسات الدينية وأجهزة الدولة المختلفة؛ لأن أبعاده تشمل المجالات المختلفة ثقافيًّا واجتماعيًّا وأمنيًّا وسياسيًّا، ونقتصر فى هذه الورقة على تدوين أهم أساليب المواجهة الثقافية للتطرف والتشدد، ونقترح فى ذلك عدة نقاط، وهى كالتالى:

(أ) جهود الدولة :

يجب أن تتضافر جهود الدولة ومؤسساتها للتصدى للفكر المتشدد والمتطرف ومحاربته ومحاربة من يروج له، بل لا بد من وجود آلية تكشف دعاته والمحرضين له، كما يمكن للدولة أن تتدخل من خلال مؤسساتها الدينية والتعليمية والثقافية والإعلامية لتكثيف الحضور الثقافى فى الأوساط الاجتماعية، وفتح قنوات الحوار وأدوات التواصل مع الشباب؛ لعرض ما لديهم من أفكار وتفنيد الشبهات وبيان أوجه الحق فى كافة المسائل وتبادل وجهات النظر، مع وجوب عمل إستراتيجية كاملة وشاملة تهدف إلى تجفيف منابع التيارات المتشددة وفكرها المتطرف محليًّا وخارجيًّا، والتحكم بالبيئة التى تدفع لتبنى أفكارها.

(ب) تطوير المؤسسات الثقافية والدينية :

ينبغى أن تكون هناك رؤية واضحة تمتلكها كل مؤسسة أو هيئة عاملة فى الحقل الدينى والثقافى، سواء فى المناهج أو فى الخدمات، حتى تكون هذه المؤسسات والهيئات متطورة من حيث الاستثمار الأمثل لمواردها وإمكاناتها، وذلك من خلال مضاعفة الإنفاق على مشروعات البحث العلمى الأساسية والتطبيقية، خاصة تلك التى تواكب المستجدات العصرية والتكنولوجية، وتسهم فى تشجيع الإبداع والابتكار والتميز، وكذلك زيادة الإيرادات وضبط النفقات فى جميع المجالات، مع دعم تحسين الأداء والإنتاج، والعمل على اعتماد نظم فعالة لمؤشرات النجاح فى كل المجالات الأكاديمية والإدارية والمالية لتحقيق مضامين الجودة الشاملة، مما يمكنها من القيام بدورها المنوط بها فى نشر الوعى والمعرفة.

وذلك لأن مواجهة تيارات التطرف والتشدد الفكرية لا بد أن تنطلق من مبدأ المحافظة على الوعى ونشر الفهم الصحيح فى المجتمع، وكما أن هذا الأمر يتطلب جهودًا دءوبة من المؤسسات الرسمية، يتطلب أيضًا من العلماء المشهود لهم بالكفاءة والخبرة والثقة أن يتقدموا الصفوف فى نشر الفكر الصحيح، والبدء فى برامج إعادة تأهيل الشباب الذين سقطوا فى براثن التطرف والتشدد، وإعاقة أى عمليات تجنيد جديدة من خلال حملات التوعية والبرامج الإرشادية والدروس واللقاءات الدينية، مع استحداث وسائل جديدة تواكب العصر.

(ج) تحقيق الأمن الفكرى :

أعطى الإسلام أمن المجتمعات الفكرى الاهتمام البالغ، فقد جعله من أعظم مقاصد الشريعة، إذ به يتحقق حفظها، وهو مفتاح تحقيق العزة والخيرية للأمة الإسلامية، وبه تبنى الأمم وتنهض، وأى إخلال به إخلال بالجانب السلوكى والاجتماعى والسياسى لها، وقد عرّف الجرجانى الأمن بقوله: "عدم توقع مكروه فى الزمان الآتى" (١).

أما المقصود بالأمن الفكرى للمجتمع فخلاصة ما جاء فى تعريفه: أن يسعى إلى تحقيق الحماية التامة لفكر الإنسان من الانحراف أو الخروج عن الوسطية والاعتدال، وأنه يُعنى بحماية المنظومة العقدية والثقافية والأخلاقية والأمنية فى مواجهة كل فكر أو معتقد منحرف أو متطرف وما يتبعه من سلوك (٢).

---

(١) التعريفات، ط. دار الكتب العلمية ص ٣٧ .

(٢) انظر: الأمن الفكرى فى مواجهة المؤثرات الفكرية، لحيدر عبد الرحمن حيدر، وهى رسالة دكتوراه بأكاديمية الشرطة –مصر.

ولا شك أن وسائل تحقيق الأمن الفكرى للمجتمعات تتلخص فى دعم المؤسسات العلمية المتمثلة فى الأزهر الشريف، وهو المظلة الكبرى التى تحمل مشاعل الإسلام عبر القرون، وكذلك وزارة الأوقاف ودار الإفتاء المصرية، ومن ثَمَّ ينتشر فكر الوسطية فى المجتمع حتى نحافظ على المنظومة العقدية والثقافية والأخلاقية فيه.

وطالما تعمد أهل التشدد والتطرف التقليل من شأن هذه المؤسسات العريقة، فضلاً عن هجرها والدعوة إلى صنع هيئات ومرجعيات موازية لها، وقد تكفَّلت تلك الهيئات والمرجعيات المتطرفة بإبعاد المقلد لتعاليمها عن الملامح الواضحة السوية التى تميز جماعة المسلمين هويةً ومظهرًا .

ويضاف إلى ذلك ضرورة تحصين المجتمع من أى تشدد وانحراف فكرى من خلال برامج ومناهج التعليم، وخطب الجمع والمناسبات الوطنية والدينية، وعقد المحاضرات والندوات والمؤتمرات التى تستهدف الموضوعات المثارة بين شرائح الشباب، والاهتمام بالمواد الإعلامية (مرئية – مسموعة– مقروءة) التى تغرس منظومة القيم الدينية والوطنية وترسخ العادات الأصيلة.

(د) قصر الخطاب على المتخصصين :

مما لا شك فيه أن الخطاب الدينى والثقافى الذى يصدر عن غير المتخصصين يثير البلبلة فى المجتمع، ويساعد على إشاعة الفرقة والاختلاف بين أبناء الوطن الواحد بل بين أفراد الأسرة الواحدة؛ لأن اجتراء الأدعياء واتخاذهم رءوسًا ومراجع يُدْخِل على الناس اللبس والتشويش فى دينهم، فتختلط لديهم المفاهيم والأمور العلمية والشرعية، وتنفتح عليهم أبواب الفتن، خاصة مع شيوع الأمية الدينية بين أفراد الأمة، بالإضافة إلى مؤامرات الأعداء .

من أجل ذلك كله يستدعى النظرُ والعقل والعلم والحكمة والواقع قصرَ التحدث فى الخطابين الدينى والثقافى على أهلهما، من المشهود لهم بالكفاءة والجدارة؛ تحقيقًا للأمر الوارد فى قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ ﴾ [1]، ولا شك أن تحرى ذلك وتطبيقه هو من عزائم الأمور؛ ومن ثَمَّ نحقق الاجتماع على آراء العلماء الراسخين، حتى نحمى المجتمع وثوابته من التطرف والشذوذ فى الأقوال وفى الفتاوى .

(١) النساء: ٨٣ .

(هـ) تصحيح المفاهيم :

ظهرت أصوات كثيرة فى الآونة الأخيرة فى مجال الدعوة عبر الوسائل والأنماط المختلفة، غير أن جملة كبيرة منها لم تتوفر فيهم شروط خطاب الوسطية، بل لم تُلق لذلك بالاً من الأساس، ومن ثَمَّ قَلَّ ظهور أصحاب ميزان الوسطية العادل، فانتشر خطاب شابه شيءٌ من التفريط والإفراط على حدٍّ سواء، ونتج عنه اختلال فى الرؤية والعرْض والنتيجة.

ووصل الأمر إلى إن تيارات التطرف وأهل التشدد استهدفوا علماء الأمة ولمزهم وتصفيتهم حسيًّا ومعنويًّا؛ لأنهم يمثلون رجال التنوير والتجديد، فهم نسخ فريدة غير متكررة؛ لجمعهم بين المعرفة الواسعة والإلمام الدقيق بمناهجها ومسائلها، والتحلى بقيمها الروحية والسلوكية وإشعاعاتها الثقافية والاجتماعية، وما كان ذلك إلا أن هؤلاء المجرمين يهدفون إلى خلو الساحة لهم ولأفكارهم المتطرفة والإرهابية ؛ فكانوا سببًا ظاهرًا فى التعجيل بقبض العلم والعلماء.

ورغم التزام هؤلاء الأكابر بالعلم والحكمة ومراعاة أدبيات الحوار فى تفنيد مزاعم تيارات التطرف وموجات التشدد، وتبصير الناس بأمور دينهم وفق منهج الوسطية والاعتدال الذى لا يحملهم على الإفراط والشدة ولا يذهب بهم إلى التفريط والانحلال، فقد عاجلهم هؤلاء المتطرفون على مدار تاريخهم بمحاولات القتل والتصفية جراء قيامهم بواجب وقتهم ومسئوليتهم تجاه دينهم وأوطانهم، خاصة فى تحديد المفاهيم وضبطها.

من هنا تبرز أهم المشكلات والتحديات التى تواجه منهج الوسطية وخطابه وأهله القائمين به، وهى – كما هو ظاهر فى الآونة الأخيرة – تتلخص فى: تصفية علمائه وحاملى مشاعله واغتيالهم معنويًّا، وتحرير المفاهيم وتحديدها بعد أن شابها كثير من الأخطاء والخطايا التى تعمدت الأفكار المتطرفة فى تشويهها ولَيِّها بما يخدم تطلعاتها الآثمة وأهوائها المنحرفة؛ مما أدى إلى إشاعة تلك المفاهيم التى تحمل منظومة القيم بصورة مغايرة عما هى عليه فى صحيح الدين، بل متباينة ينضح منها الاختلاف والتنازع والاستقطاب، حتى وصل الأمر إلى إراقة الدماء والتقاتل بين أبناء الوطن الواحد، والدين الواحد، بسبب فتوى واحدة تحصر الجهاد مثلا فى القتل فحسب، بل تتجاوز ذلك إلى استحلال اتخاذ المعنى السامى للجهاد شعارا فى قتل المسلمين والمستأمنين.

ومن أمثال تلك المفاهيم: الجهاد، والحاكمية، والتعايش مع الآخر، والمرجعية، وتطبيق الشريعة ، والمرأة، وغير ذلك من المفاهيم التى رسخت بشكل خاطئ لدى هؤلاء القوم حتى أصبحت مبادئ اعتقادية لا تقبل التفكيك أو المناقشة.

وذلك يقتضى ضرورة بعث روح التجديد فى هذه المفاهيم بتصحيحها وإرجاعها إلى سياجها الأخلاقى الذى ينشره الدين الإسلامى الحضارى عبر التاريخ، بعد أن ظلمها أولئك المرجفون، وظلموا بها.

(و) إحياء التراث :

ينبغى على من يتعامل مع التراث أن يكونَ تعامله متزناً يحفظ التمييز بين ما هو مقدَّس لدى المسلمين المتمثل فى الأصلين المنزهين "الكتاب والسنة"، وبين ما هو محترم لديهم، وهو سائر التراث الذى جدَّ المسلمون فى إنتاجه من علوم وفكر وفقه ورؤى وواقع تاريخى ملموس.

ولا ريب فإن هذا التراث الخالد تتعدد سماته وتتنوع خصائصه؛ نظرًا لتشعب جوانبه الفكرية والنصية والعرفانية، ولتضمنه علومًا مختلفة؛ شرعية وطبيعية وأدبية، وامتداده زمنيًّا مدة ثلاثة عشر قرناً، وتنوعه فى درجات التوثيق، وأنه نتاج فكرى بشرى نسبى زمنى قابل للأخذ والرد، وأنه عالمى.

ومن ذلك فلا بد من فهمه فهمًا صحيحًا، وهذا لا يتأتى إلا بالإلمام بخمسة حدود ومراعاتها، وهى:

١ــ اللغة العربيَّة، وتمثل وعاء المنطق العربى .

٢ــ الإجماع، ويلزم عدم تجاهله أو خرقه.

٣ــ المقاصد الكلية من حفظ الدين والنفس والعِرض والعقل والمال.

٤ــ النموذج المعرفى المتمثل فى الإلمام بعناصر التكوين العقلى.

٥ــ المبادئ العامة للشرع الشريف.

كما أنه تتجلى المنهجية الوسطية للتعامل مع هذا التراث فى النقاط الآتية :

١ ــ التعامل المنهجى، الذى نبعد فيه عن القبول المطلق، أو الرفض المطلق، أو الانتقاء العشوائى.

٢ ــ التعامل التكاملى، فى جوانبه الفكرية والنصية والعرفانية، وكذلك فى مصادره التى تعالج نواحيه المختلفة، وأزمنته المختلفة، وعلومه المتنوعة.

٣ ــ التعامل الإحيائى، بالبحث والتفتيش عن مناهجه؛ للاستفادة منها وصياغتها وبيان كيفية تشغيلها فى ظل مقتضيات عصرنا.

٤ ــ التعامل العادل، ويراعى فيه الابتعاد عن نزع التراث عن زمنه وظرفه التاريخى وقياسه بمفاهيم عصرنا ومصطلحاته.

٥ ــ خدمة التراث نشرًا وتحقيقًا وتقريبًا واختصارًا وفهرسة، واستعمال تقنيات العصر لذلك، وتصنيف العلوم وموسوعات المصطلحات لمزيد الاستفادة منه ومنع العوائق التى تفصلنا عنه.

٦ ــ وضع المعيار الذى به يتم تقويم التراث والتعامل معه، وهذا المعيار يتمثل فى مصدرى المعرفة عند المسلمين على مر العصور: الوحى (الكتاب والسنة)، والوجود (الكون والإنسان والحياة)، وهما المعبر عنهما أيضًا بالنقل والعقل، أو النص والواقع، أو الكتاب المسطور والكتاب المنظور، وهذا المعيار هو الذى نقيس به الوارد من الإنتاج البشرى فنقبل أو نرفض .

(ز) المواجهة الإلكترونية :

لا يخفى اتجاه التيارات المتشددة وأهل التطرف نحو الاستفادة من كافة الوسائل التكنولوجية الحديثة بشتى السبل والإمكانات؛ حتى يعرضوا أفكارهم وينشروا مرتكزاتهم الحركية على أوسع نطاق.

كما يجتهدون فى تهيئة المجتمع للفوضى ولأفكارهم الإرهابية حتى ولو فى العالم الافتراضى من خلال التحريض والتهييج وبث الشائعات، حتى يستميلوا قلوب وعقول الرأى العام، خاصة الشباب من الجنسين، وجرهم لطريق التشدد والتطرف.

وهذا يقتضى ضرورة متابعة ورصد وتحليل ومواجهة هذه الأفكار والآراء المتشددة التى تُحدث بلبلة فى المجتمع وفق المنهج العلمى الصحيح؛ بقصد تنقية وتصحيح وتصويب الساحة الدينية مما أصابها من ظواهر التكفير والتطرف وتطويع الآراء الدينية لخدمة أهداف خبيثة، فضلا عن عدم ترك فراغ لهؤلاء يتحركون فيه؛ فالعالم لا يعرف الفراغ.

(ح) تكوين ودعم الأسرة والمؤسسات التربوية:

الأسرة والمؤسسات التربوية هى الأساس الذى بقدر ما يكون راسخًا يكون صرح المجتمع وبناؤه منيعًا، فهما يقومان بدور كبير فى حماية المجتمع من التطرف والتشدد فى المراحل المختلفة: البناء والوقاية والعلاج، والاهتمام بهذه الأمور ليس ترفًا، وإنما ضرورة حياتية وواجب شرعى ووطني؛ قال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ** ﴾ [(١)]، وفى الحديث قال ﷺ : « **كلكم راع فمسئول عن رعيته.. والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم.. ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**» [(٢)].

---

(١) التحريم: ٦.

(٢) متفقٌ عليه.

ونلاحظ أن المؤسسات العلمية والدعوية والإفتائية فى العالم الإسلامى تبذل جهدًا مشكورًا تجاه الأمة: من تعليم العلوم الدينية لطلاب العلم على كافة المستويات والأدوار التعليمية، ومن التوجيه والإرشاد لعموم الأمة بالأمور الشرعية عبر الوسائل المختلفة، وبحث قضايا الأمة من خلال إنشاء المراكز البحثية والهيئات والمجامع العلمية المتخصصة وعقد المؤتمرات العالمية، وكذا التصدى لبيان الجواب الشافى لبعض الشبهات التى تَرِد من هنا أو هناك، وإصدار الفتاوى التى توضح للناس ما يشغلهم من أمور الدنيا والآخرة .

ومع ذلك نوصى بمزيد من الجهود الخلاقة التى تبتكر الأساليب والطرق المختلفة لاحتواء الشباب ووقايتهم من مخاطر التشدد والتطرف، من خلال الالتزام بتقديم نموذج وسطى للتدين، والسعى الجاد فى أن تكون الوسطية ثقافة عامة سائدة، وترسيخ واستنهاض مشاعر الترابط بين جميع فئات وشرائح المجتمع، وتوعية المجتمع بأضرار وعواقب التعصب والتشدد، وأخذ العبرة من المجتمعات التى تعانى من هذه الآفات الفكرية التى تفتك بنسيجها الوطني، وتوجيه طاقات الشباب واستثمارها لصالح الوطن، والحرص على مشاركتهم لرصد رؤاهم تجاه الوطن، والتواصل مع شباب الجامعات من خلال إقامة الندوات والمؤتمرات والمحاضرات داخل الحرم الجامعى وفى الدروس الدينية والثقافية، واعتماد الحوار كوسيلة للتغيير، ومقابلة الكلمة بالكلمة، والفكر بالفكر، والحجة بالحجة، والدليل بالدليل.

وكذا لا بد من تبنى سياسة الاحتواء الفكرى لمن غُرِّرَ بهم ووقعوا فى براثن التطرف جهلاً منهم ولم يرتكبوا أعمال عنف أو إرهاب؛ ذلك لأن الاحتواء سيحدث تقاربًا بينهم وبين محاوريهم من العلماء، مما يفتح آفاقًا للحوار والسماع، فإن استمعوا وفتحوا آذانهم وقلوبهم كان هذا أدعى إلى تعليمهم وإقناعهم.